١٢- فصل

خلافة المتوكل على الله تعالى[١]

[١٤٦] **حكى عنه أنه قال ذات يوم لأبى العيناء** : ما أشد ما مر عليك فى ذهاب عينيك ! فقال : فقْدُ رُؤْيتك يا أمير المؤمنين ، فاستحسن منه هذا الجواب ، وأمر له بجائزة نفيسة .

[١٤٧] **ومماحكاه أبو القاسم على بن محمد الذهبى عن أبى عبد الله النحوى قال:** لما حج محمد بن عبد الله بن طاهر رأى فى الطواف جارية فى نهاية الحسن فسأل عنها فقيل : إنها لرجل من الأدباء ، قد رواها الأشعار ، والأخبار ، والنحو ، والعروض، وقد أحسنت ضرب العود ، وطريق الغناء ؛ فاشتراها بمائة ألف درهم . فلما قدم بها مدينة دار السلام شغف بها شغفا شديدا وأخفى أمرها ومايجده منها تخوفا من أمير المؤمنين المتوكل ، وكان من شدة وجده بها يحتبس عندها أياما لايظهر للناس فيظنون أنه زمن[٢] وأمره معها مستور ففطن به سويد بن أبى العالية[٣]

---

(١) جعفر بن محمد بن هارون الرشيد ، المتوكل على الله : من خلفاء الدولة العباسية ، ولد ببغداد ، وبويع بعد وفاة أخيه الواثق [٢٣٢هـ] وكان جوادا ، محبا للعمران ، من آثاره المتوكلية ببغداد أنفق عليها أموالا كثيرة . ولما استخلف كتب إلى أهل بغداد كتابا قرىء على المنبر بترك الجدل فى القرآن ، وأن الذمة بريئة ممن يقول بخلقه أو غير خلق .اغتيل فى سامراء ليلا [٢٤٧هـ - ٨٦١م] . انظر : تاريخ بغداد (١٦٥/٧).

(٢) زَمِنَ : أصابته الزَمَانة ، أى شدة العشق .

(٣) محمد بن يذداد بن سويد المروزى :من رجال الدولة العباسية ، ومن كتاب الإنشاء.ت[٢٣٠هـ] .

صاحب البريد ، وكان بينه وبين محمد منافرة ، فلم يجد سوأ يكيده به إلا أن كتب إلى المتوكل وهو نازل على أربعة فراسخ من بغداد كتابا نسخته : «بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد يا أمير المؤمنين فإن محمد بن عبد الله اشترى جارية بمائة ألف درهم فهو يصطبح معها ويغتبق زمانه كله معها ، وقد اشتغل بها عن النظر فى أمور المسلمين ، وعن التوقيع فى قصص المظلومين ، ولا يأمن أمير المؤمنين أن تخرب عليه بغداد مع كثرة ما فيها من الغوغاء ، فيتعب أمير المؤمنين فى اصطلاحها وقد أنهى المملوك ذلك إلى أمير المؤمنين أيده الله وهو أعلى رأيا والسلام عليه ورحمة الله وبركاته»

قال : فلما قرأ المتوكل الكتاب رفع رأسه إلى نرجس الخادم وقال له: امض الساعة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر وادخل عليه داره بغتة من غير إذن ، وانظر إلى ما يصنع ، ثم خذ منه جاريته فلانة وأت بها من غير تأخير، فمضى نرجس من ساعته . وكان محمد قد اصطبح معها فى ذلك اليوم فدخل عليهما نرجس من غير استئذان فلم يشعر محمد إلا وهو واقف عليه ، فتغير وجهه وانتقع لونه وفاضت عيناه وارتعدت فرائصه ، لعلمه أن نرجسا ما دخل عليه من غير إذن إلا وقد أضمر له السوء . فقال له : يا نرجس ما الذى أقدمك قال أمير المؤمنين أمرنى أن آخذ جاريتك هذه ، قال : يا نرجس هذا اليوم قد حضر شره ، وغاب خيره ، وقد ترى ما نحن فيه ، وأنا لا أخالف ما أمر به أمير المؤمنين ، ثم أمر للخادم بكرسى فجلس عليه بعد أن امتنع ساعة وقال : إن مثلى لا يجلس مع مثلك ، ثم إن محمدا نظر إلى الجارية وبكى بكاءاً شديدا ، وقال لها غنى لأتزود منك ، فأخذت العود وغنت بصوت حزين تقول :

للـــه مـــن لمعذبيـــن رماهمـــا	بشـــماتة العـــذال والحســـاد
أما الرحيـل فحـين حـد تحمـل	مهـج النفـوس بـه مـن الأحساد
من لم يـت والبين يصـدع شمله	لـم يـدر كيف تفتـت الأكباد[1]

ثم إنهما أعلنا بالبكاء والنحيب والشهيق ، فرحمهما الخادم ورق لهما حين عاين ما حل بهما ، فقال : أيها الأمير إن رأيت أن أمضى وأدعكما على ما أنتما عليه، وأتعلل عنكما لأمير المؤمنين فعلت ، فقال : يا نرجس من خلفه مثل أبى سويد كيف يمكنه التعلل ؟ ولكن ارفق بنا ، فقالت الجارية: والله يا سيدى لا ملكنى غيرك أبدا ، ولئن دفعتنى إليه لأقتلن نفسى، فقال لها محمد : لوكان غير أمير المؤمنين لكان فى ذلك أوسع حيلة ، ولقد وددت أن يأخذ منى أمير المؤمنين جميع ما أملك ويعزلنى عن عملى ويبقيك علىّ ، ولكن هذا قضاء الله وقدره ، ثم التفت إلى نرجس وقال : لقد شاهدت منى ومن هذه الجارية ما شهد قلبك علينا بالمحبة والمودة والألفة، وليس يخفى عن علمك أن صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، ومثلك من يصنع المعروف مع مثلى ، فخذها وامض بها إلى أمير المؤمنين وقل ما شئت مما يليق بمروءتك ، ثم التفت إليها وقبلها وبكى وبكت وبكى نرجس ، ثم أخذها وخرج وهى تبكى، وتخمش خدها ووجهها[2] ثم حملها نرجس على بغلة أمير المؤمنين وسار حتى دخل على المتوكل .

---

(١) البين : البعد .

(٢) تُخمش خدها : أى تلطمه

فلما رآه قال : ما وراءك يا نرجس قال ورائى يـا أمير المؤمنيـن كـل بلية ثم إنه جلس بيـن يديـه وقـص عليـه حالهمـا ولـم يخـف شـيئا ، فقـال المتوكل : وكل هذا الوجد يجده محمد من هذه الجارية ؟ فقال : يا أمير المؤمنين والذى خفى أكثر مما ظهر وما أظنه يعيش بعدها ، فرق عليه قلب المتوكل وقال : يا نرجس ارجع بها إليه الساعة من وقتك هذا وأدركه قبـل أن تزهق روحه وقد أمرت له بمائة ألف درهم ولها مع ذلك مثله ، وجعلت أمر أبى سويد إليه يصنع به ما يشاء ، ثم كتب له توقيعا بذلـك ودفعـه إلـى نرجس فرجع الخادم بالجارية والتوقيع ولم يتمهل حتى دخـل عليـه فوجـده عريانا يتقلب على حصر سامان[1] من شدة الكرب والوجد ، وقد أحدقـت به الجوارى يروّحنه بالمراوح .

فقال : أبشر يا محمد إن أمير المؤمنين قد رد جاريتك عليك من غـير أن يوقع نظره عليها ، وقد حكمك فى أبى سويد ، ثم ناوله التوقيـع بذلـك ودخلت الجارية عليه فوثب إليها وعانقها وقبلها ساعة ، ثـم خـرج فجلـس على باب داره وبعث إلى أبى سويد . فلما حضـر دفـع إليـه التوقيـع . فلمـا قرأه قال : أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك ، وأن تهدم منـى ركنا أنت شيدته ، وأن تضيع صنيعة اصطنعتها إلى مثلـى ، فمثلـى مـن هفـا ومثلك من عفا ، ثم قام وقبل البساط .

فقال له محمد : لا أبدل نعمة الله كفرا ، ثم أمـر لـه بخمسـين ألـف درهم، فقالت الجارية : وأنا أيضا أهب له خمسين ألف درهم مما وهبه لى أمير المؤمنين شكرالله تعالى على ذلك ، ثم أقره على ما كان عليه وأمر أن

---

(١) حصر سامان : نوع من أنواع الحصر ، وسـامان : قريـة فـى خراسـان إليهـا ينسـب السامانيون .

يحمل المال بين يديه إلى منزله ، ورجع محمد والجارية إلى ما كانا عليه في أطيب عيش وأحسن حال متظاهرا بذلك غير مستتر ولا خائف ، انتهى.

[١٤٨] و [قيل] :أتى المتوكل بمحمد بن النصيب ووزيره ابن الديرواني ، وكان محمد هذا قد خرج على المتوكل واستوزر ابن الديرواني ، فلما مثل بين يدى المتوكل قال له : ما حملك على ما فعلت يا محمد ؟ قال الشقوة وحسن الظن بعفوك يا أمير المؤمنين ، وأنشد يقول :

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلى ... إمام الهدى والعفو بالحر أجمل
تضاءل ذنبى عند عفوك قلة ... فجد لى بعفو منك فالعفو أفضل

فقال الملك : خلوا سبيله ثم قدم ابن الديرواني فقال : اضربوا عنقه فقال : سبحان الله يا أمير المؤمنين تعفو عن الرأس وتقطع الذنب ، فضحك المتوكل وعفا عنه انتهى .

[١٤٩] **وكتب محمد بن عبد الملك الزيات[1] وهو في السجن :** - وقد اشتد به الحال- فكتب رقعة إلى المتوكل يستعطفه على نفسه من شدة ما قاسى من الأهوال والعذاب في السجن يقول فيها هذين البيتين :

هى السبيل فمن يوم إلى يوم ... كفرحة النائم الفرحان بالنوم
لا تعجلن رويدا إنها دول ... دنيا تنقل من قوم إلى قوم

قال : فلما قرأها المتوكل رق له وبكى ، وأمر بإطلاقه . فذهبوا إلى السجن فوجدوه ميتا رحمة الله عليه .

---

(١) محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ، أبو جعفر : وزير المعتصم ، والواثق . عزبه المتوكل وسجنه ، ت[٢٣٣هـ] .